دراسات الأدب المعاصر، السنة السابعة، ربیع ۱۳۹۴، العدد الخامس والعشرون: صص۱۰۵- ۱۲۲

ایلیا أبوماضی بین التشکیک والریبة فی الحیاة

نرجس توحیدی‌فر *

تاریخ الوصول: ۹۳/۹/۳
تاریخ القبول: ۹۳/۹/۲۵

الملخص

ایلیا ابوماضی عاش فی القرن العشرین متنقلاً بین التقلید والتجدید، وأفکاره الفلسفیة بحتة کلّها غیر عمیقة، وهو قد ترک شعره یبسطها علی صفحات دواوینه وقد اتخذ طریق الفلسفة التوماویة الجدیدة التی تعود فی جذورها إلی آراء رجل الدین المسیحی *توما الأکوینی* فی القرن الثالث عشر؛ وقد اعتبرت هذه الفلسفة من أهمّ الحرکات فی هذا العصر والکنیسه وافقت علی هذه الفکرة والحرکة الإعتقادیة. وقد غرق *ابوماضی* فی بحوثه فی بحر التشاؤم، فلذلک نری تیّار الحیاة قویٌّ یغرق کُلّ ما یصادف أمامه إن لم یقاوم، وشاعرنا من المقاومین الناجین، فإذا الوطن کلّه صفحةٌ سوداء فینتابها الجهل والظلم والتخاذل والتمزق والضعف والفوضی وسوء الحکم. فتشائمه کتشائم *الخیام* فی بعض أشعاره، ونحن علی عملٍ بأن نذکر هذه التشابهات والمفترقات مع الذکر علی تأثیره من أفکار *أبی‌العلاء المعری*، لأنه کان یعیش بنفس الفکرة التوماویة.

الکلمات الدلیلیة: التشاؤم، ابوماضی، الخیام، التفاؤل، ابوالعلاء، شوبنهور.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* ماجستیرة فی اللغة العربیة وآدابها.

المقدمة

ولد *ايليا أبوماضى* عام ١٨٩١ م فى قرية المحيدثة التابعة لقضاء المتن الشمالى الذى أضفى عليها من جماله سحراً ومِن نسبه طراوةً فى لبنان، وعلى الرغم من جمال الطبيعة كان والده يعيش على تربية دودة القز والعناية بأشجار التوت؛ ولكن المهنة لا تقيم أوداً ولا تُشفى عليلاً، الأمر الذى جعل هذا الوالد ضيق اليد، قليل الرزق، أمام أسرته البالغة على ثمانية أفراد وهم خمسة أبناء وبنت واحدة والفقر قد فجع بموت الأولاد أحدهم تِلو الآخر فى ريعان الشباب، ففقر وموت وهجرة وضياع وتفرق واستبداد كانت هى العناوين الرئيسية التى عاشها *ابوماضى* فى حياته ومشكلته أنه كان عصامياً لم يعتد المجاملة والمحاباة لأحد(ابوماضى، ١٩٧٧: ٣٠).

وما كاد يتلمس طريقه فى الحياة حتى الحّت عليه حاجتان؛ حاجة الجسد وحاجة الروح، فإنه كان يعمل ويدرّس ويستغرق ذلك منه ثمانى سنوات وكان يُقرض خلالها بعض الشعر وجمعه فى شبه ديوان سماه «تذكار الماضى». وقال عنه *جبران خليل جبران* فى حين أنه كان يقصد حالة *أبىماضى* الشاعر: «إنّه مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية تُرى فى الطبيعة ما لا تراه العيون، وأذنٌ باطنية تسمع من همس الأيام والليالى ما لا تعيه الآذان»(ابو ماضى، ١٩١١: المقدمة).

كان *ابو ماضى* يتحمل مزيداً مِن المشكلات ويصادف العديد مِن التجارب التى كان الفقر أولها، والظلم ثانيها، وحال الأسرة التى كانت كريشة فى مهبّ الريح ثالثها، والإضطهاد السياسى رابعها، وفقدان الحرية خامسها، وعدم الأمن والإستقرار سادسها، والمشاكل التى أجبره بمغادرة الوطن سابعها، وحبّ المعرفة وتتبع الأدب ثامنها(ابوماضى، ١٩٧٧: ٣٢).

كان *ايليا* على ما يبدو من مسيرة حياته ومن ترتيله لشعره قانعاً بموهبته، وقد برزت روحه الهامسة بترتيل الشعر، وما هى أماكن هجرته إلاّ معالم متشابهة أمام الشاعرية المبكرة لذلك قال الشعر منذ عهد مبكّر.

و يعتبر *الأستاذ زهير ميرزا* أنّ قصيدته «صاحب القلم» خير وثيقة عن حياة الشاعر فى مصر(ابوماضى، ٢٠٠٩: ٦۴۵)، فهو يرى فى مصر مرتعاً رائعاً لصباه وأياماً ناعمة لم تتوفّر له فى سواه، ويقول هكذا:

لكـنّ مصـراً ومـا نفسـى بناسـيةٍ ... مليكـة الشـرق ذات النيـل والهـرمِ
صرفتُ شطر الصبا فيها فما خشيت ... نفسى العثار ولا نفسى مِـن الوصـمِ

(ابو ماضى، ٢٠٠٩: ٦٢٥)

ولا غَرو أن تكون مصر «تاج الشرق» بما تمتاز به مِـن الشـمائل ومـا فيهـا مِـن الأدب الجمّ، الأمر الذى يحولها لتكون المقدمة على سائر بلدان العرب، وقد وصف مصراً فى أبعـاد عالية بعد أن تعرّف عليها وأقام سنين فيها منشداً:

الشـرق تـاجٌ ومصـرٌ منـه دُرّتـه ... والشرق جيشُ ومصر حامـل العلـمِ
هيهات تطرف فيها عـين زائرهـا ... بغيـر ذى أدبٍ أو غيـر ذى شـمم

(ن.م: ۴۴۸)

وأهم ما فى هذه البلدة الحرية التى تمتاز بها شعبها واكتساب العلم علـى سـطحٍ عـالٍ بقوله:

أحنى على الحرّ مِن أمٍّ على ولدٍ ... فالحرّ فى مصر كالورقاءِ فى الحَـرم

(ن.م: ن.ص)

وإذا عرفنا أنّ هذه القصيدة قيلت بعد زمن من مغادرته لمصـر، اتضـح لنـا مـدى هـذا الحبّ الذى حمله بين جوانحه لها، بينما كانت ديار الغرب وبالاً شديداً عليه، فاذا هو يقول الشعر ولا أحد يفهم ما يفوه به ويبقى غريباً ولو عاش فيه دهراً وتحـول النـاس فيهـا إلـى قرود تُدعى الحشمة ويقول منشداً:

أصبحتُ فى معشرٍ تقذى العيون بهم ... شـرٌّ مـن الـداء فـى الأحشـاءِ والـتُخَم
مـا عـزّ قـدر الأديـب الحـرُّ بيـنهم ... ذلّـاً كمـا عـزّ قـدر الحـىّ فـى الـرمم
من كلّ فـظٍ يريـک القـرد محتشـماً ... ويضـحکَ القـرد منـه غيـر محتشـم
إذا بصـرت بـه لافاتـه كـدرٌ ... رأيـتَ أسـمحَ خلـق اللهِ كلّهُـم
مِـن الأعـراب لكـن حـين أنشـده ... جـواهر الشـعر القـاه مِـن العجـم
مـا إن تحرّكـه همـاً ولا طربـاً ... كأنّمـا أنـا أتلوهـا علـى صـنم

(ن.م: ن.ص)

وبقيت مصر فى خاطره انشودة محبته ومبعثاً للإفتخار والإعتزاز، ولها فى نفسـه مكانـة رفيعة وكما يقول حول وطنه ومصر منشداً:

وطنـان أشـوق مـا أكـون إليهمـا مصـر التـى أحببتهـا وبـلادى
بلـد الجمـال، خفيـةً وجليـةً والفـن مـن مسـتطرفٍ وتـلادِ
أبنـاء مصـر الناهضـين تحيـةً كـودادكم إن لـم أقـل كـودادى
(أبو ماضى، ١٩٢٧: ٨٢)

صنعته الشعرية وغرضه

هو قد نظم الشعر من أجل الشعر ولم يمدح أحداً ولم ينخرط فى المتاهات السياسـية التى لجأ إليها الآخرون من أبناء الوطن، وظلّ بعيداً عن تيارات الأدب المصطرعة بعيداً عن دسائس الإنكليز وحبائلهم عن وعى، ولم يجد خيراً من أن يفتح قلبـه للخيـال يأخـذ منـا أجمل ما فيها ويغمض الطرف عن كلّ شرورها وآلامها(الناعورى، ١٩٧٧: ٣١).

حياته التشائمية و انعكاسها فى أدبه

كان التشائم يلعب دوراً بـارزاً فـى تطـوير الأدب العربـى فـى فنيـه الأساسيين(الشـعر والنثر)، وقد ظهـرت الحركـة الرومنطيقيـة المتـأثرة بـالغرب فـى أبـرز ملاحمهـا وأجلـى خطوطها حتى أصبحت العقول عاملاً لترقية الأدب العربى. ويمكن أن نذكر أسـماء الـذين لعبوا دوراً مهماً مِن التشاؤم فى حياته هم *جبران خليل جبران* و*ميخائيـل نعيمـة* و*رشـيد سليم الخورى* و*إلياس فياض* حتى ندرک أهمية الخطوة التـى قـام بهـا المهجريـون علـى صعيد الأدب.

وعلى الرغم من أنّ مصر كانت تعجّ بالتيارات الأدبية، عشيّة هبوط *ابى ماضى* إليهـا؛ إلاّ أنه بقى على ضفافها ولم ينغمس فيها ولعل عدم تبحّره فيها كان السـبب الرئيسـى الـذى أبقاه فى منجى منها. وقد دلل *الدكتور طه حسين* على هذه الحقيقة فى حديثه عن شعره يقوله: «لكنّ شخصيته قوية، فهو يتناول المعانى التـى سـبق إليهـا الشـعراء المتشـائمون والمسرفون فى الشک من القدماء والمحـدثين فيـنفخ مـن روحـه القـوى ويكـاد يفـرض شخصيته فرضا»(حسين، د.ت: ١۴۵).

هكذا نرى الشاعر يبسط موضوع التشاؤم فى دواوينه وهو الأساس الذى يبنى عليه كلّ شىء، والفكرة التى ينطلق منها للوصول إلى غايته فى تصميم الفـرح وإذا كانـت الفلسـفة

التوماوية الجديدة تدعو إلى الغبطة والسعادة وتجعل من مصير الإنسان متعلقاً بهما، وعليه أن يعمل للوصول إليهما لأنه يرى أنّ مفهوم القيمة هو مركز الأخلاق والنشاط الدائم، أما فی تخيلات التوماوية الجديدة نرى أنها تقيم اعتباراً لمقولة الفعل والقوة المركزية فی نظامهم الفلسفی(نفس المصدر: ۳۷۳).

وعنهم أخذ نظرته إلى هذا الوجود معتبراً أنه اذا كان الوجود مليئاً بالمآسی والفواجع والمشاكل وهو وجود فعلی تشاؤمی، فإن الوجود ملیءٌ بالسعادة والفرح وهو أن ينطلق فی هذا الكون ليبحث عن غبطته ويكشفها بنفسه ويقول منشداً:

كن بلسماً إن صارَ دهرک أرقما وحلاوةً إن صار غيرک علقماً
إنّ الحياة حبتک كلّ كنوزها لا تبخلنَّ علی الحياة ببعض ما
فاعْمل لإسعاد السوی وهنائهم إن شئت تسعد فی الحياة وتنعما

(ابوماضی، ۱۹۲۷: ۴۵۷)

والدهر فی نظره أرقم وعلقم، ويقول من عقد العزم علی الحياة عليه أن يتنكب سلاحه وأن يكون فاعلاً ولا يدع الأمور تجری وهو لابث ينتظر، فی حين أن الحياة مليئة بالكنوز وعلی الإنسان أن يسعی إليها ليجد سعادته.

أما إذا كان *ابو ماضی* قد غرق فی لجة التشاؤم، فلأن تيار الحياة قوی يغرق كلّ ما يصادفه أمامه إن لم يقاوم، وشاعرنا من المقاومين الناجين فلننظر حالته الصراعية فی هذه الحياة بين حقيقة وجوده وبين ما يسعی لها. فعند الخطوات الأولی مِن حياته كانت ثمة شعور بالضيق والحرج من المشكلات التی واجهته، والحوادث تضغط علی جسده وروحه وثمة غربة ومعاناة وثمة وضع عربی بائس ووطن يغلبه الشقاء ويقول:

وطن أردناه علی حبّ العلی فأبی سوی أن يستكين إلی الشقا

(ابو ماضی، ۲۰۰۹: ۳۴۰)

وله صمتٌ يضيق علی النفس ويعتصر الأكباد، وهكذا يخرج من دياره والهم يستولی عليه والعبوس يغطی مساحات وجوده، والبؤس شائع فی وطنه قائلاً:

ضعفت قوائمها ولما ترعوی عن غيّها حتی تزولَ وتمحقا
قيل اعشقوها، قلت: لم يبق لنا معها قلوبٌ كی نحب ونعشقا

(م.س: ۳۴۲)

ولكن الدنيا لا تزال عليه بغيظة ولا تمشى معه منشداً:

اقبلــتَ والــدنيا إلــيَّ بغيظــةٌ هـلا سـبقتَ إلـيَّ أسـباب الشـقا
حنقــت بــلا ســبب علــيَّ وإنّــه ســببٌ جـديرٌ عنــده إن أخنقــا

(ن.م: ٣٤٣)

ومن يقرأ مطوّلته «الأسطورة الأزلية» يصل إلى النتيجـة نفسـها، حيـث نـرى حشـود البشر متشائمين أمام عرش الآلهة متبرمين فيما أصابهم، يطلبون نقلهـم مـن حـال إلـى حال وكما يقول حولهم والبؤس فى قلبه:

مــلّ بنــو الإنســان أطــوارهم وبرمــوا بالســقم والعافيــة
فاستصــرخوا خــالقهم واشــتهوا لــو أنّــه كــونّهم ثانيــة

(م.س: ٦٠٧)

وكلّ يصرّح بمشكلته فى تناقض الحياة من الثرى والفقير، والشاب والعجـوز، والحسـناء والقبيحة، فإذا الفتى يقول منشداً:

قــالَ الفتــى: يــا ربّ إنّ الصــبا مصــدر احزانــى وآلامــى

والشيخ يصيح قائلاً:

فصــاحَ يــا ربّــاه، خــذ حكمتــى واردد على عبدک عصر الشباب

الحسناء:

وقالــت الحســناء: يــا خــالقى وهبتنــى الحســن فأشــقيتنى

والجارية:

وســكتت فصــاحت الجاريــة باكيــةً مــن بؤســها شــاكية

والفقير:

يصــرخ يــا ربّــاه حتــى متــى تُحكّــم الموســر فــى نفســى

والغنى:

وقــالَ ذو الثــروة، مــا اشــتهى لا اشــتهى إنــى ذوثــروةٍ

والأبله:

وصــرخ الأبلــه مستفســراً ما القصد من خلقى كـذا والمـراد؟

والأديب:

فقـــال: إنّـــى تائـــهٌ حـــائِرٌ أنـا غريـبٌ فـى مكـانٍ غريـب

(ن.م: ٦٠٩)

ويريد *ابو ماضى* أن يقول بأن المأساة الإنسانية قائمة بقيـام الإنسـان، وإنهـا لـن تـزول حتى بزوال الإنسان وهذه معنى الآية الشريفة:

﴿لَقَدخَلَقْنَاالإنسانَفِى كَبَد﴾ (البلد/٤)

ويتمنى *ابو ماضى* أن يكون المستقبل أحلى من الحال بقوله:

فاستبشرى، فغداً إذا النقعُ انجلـى ســـتعود دنيانـــا أحـــبَّ وأجمـــلا

(م.س: ٤٠٤)

التساؤل

هو قطب الرحى فى كلّ ما ذهب إليه الشاعر، ظل طوال حياته يتحـدث وعلـى لسـانه كثيرٌ مِن الأسئلة وفى قلبه شوق إلى اليقين ومعرفة الحقيقة، وإنّه وجد الكثير من عناصـر ضالته التى عاش فى كل عمره يبحث عنها وكانت شهرة *أبى ماضى* تأتى من قصائد مهمة بنيت على التساؤل، إن تحدث عن الطبيعة يتساءل وإن تغنـى بالجمـال، فهـو فـى شـک وريبةٍ فى أمره، إلى أن يصل إلى يقين عبر اسئلته المكتشفة وفى بحثه عن السعادة كـان السؤال أداته وفى اعتناقه للمذهب كان فى دهشته من اسئلته.

إنّ الناظر لمجمل شعره يرى خطوط هذا المنهج القـائم علـى الإسـتقراء والإسـتدلال للوصول إلى النتيجة، وهذه هى الحقائق التى وصل إليها وأمن بها.

وفى محاولة ايجاد القاسم المشترک بين *أبى ماضى* وبين مصادره الفلسـفية وخصوصـاً التوماوية الجديدة، نجد أنه حاول أن يطبق المذهب الـذى تقـول بـه هـذه النظريـة فـى اعتبارها: «إنّ الموجود هو الموجود الفردى المتعين ولكن كـلّ موجـود كـائن لـه ماهيـة عقلية، وهذه الماهية توجد وجوداً متعيناً فى الواقع، ولكنّ العقل هو الذى يرفعها إلى مقام الكلية والعمومية وذلک بوسيلة التجربة، وإن التجريد ينطلـق مـن المسـخ الحسـية التـى تقدمها المخيلة إلى العقل من رسوم يقوم بصنعها التخيل(بوشنسکى، ١٩٩٢ :٣٧٨).

وقد اعتبر *ايليا* أنّ الشعر من دون تفكير كالبناء من غير روح، ولمـا كـان يسـعى إلـى ايجاد عالم من الحقائق يركن إليه ويصـدر شـعره مـن خلالـه، فوجـد أن يـوقظ المعرفـة للموجودات بطريقة طرح الأسئلة وإثارة قضايا معروفة.

والمعروف أنّ منهجه اعتمد على طريقين:

الأول: احياء الأسئلة القديمة حول الموجودات، ومصير الإنسان، مِن أين جئنا؟ وما نحن؟ وإلى أين صائرون؟ وقد تمثّل ذلک فی قصيدة الطلاسم(ابو ماضی، ٢٠٠٩: ١٩١).

حيث حوت مجموعة اسئلته وإشاراته إلى مظاهر كثيرة وحول ماهياتها عبر مجموعة كبيرة من الأسئلة التی استعمل فيها عبارة «لستُ أدری» فی خمس وسبعين مرة، وجاءت الأسئلة على أسلوب «تجاهل العارف» ولكنه أوهم القارئ على أنّه لايعلم شيئاً.

الثانی: الإجابة، وقد تمثلت فی مجمل شعره وفی موضوعاته المتنوعة وفی حالاته النفسية من تفاؤل وتشاؤم، ورفض وقبول وإقبال وإدبار وفرح وترح وحُبّ وكره، فإذا كانت قصيدة الطلاسم تمثل السؤال الذی شغله، فقصيدة «المساء» تجيب على جزء كبير مما يبحث عنه.

وإذا كان شعر *أبی ماضی* لا يختزل فی هاتين القصيدتين، فإنهما تعكسان منهجه فی طرح المشكلة ثم محاولة ايجاد الحلّ لها عن طريق الشک والإستدلال والإستقراء والإستنتاج.

وقصيدة «المساء» هی الطريق إلى التفاؤل الذی ملأ شعره، وهی النقيض لمرض السؤال الكبير الدائم حول دقائق الحياة، كما هو المبطل لدعوى التشاؤم وهكذا يصبح الوجود جملة من الحقائق المبهمة ونری نموذجاً من قصيدة «المساء»:

فأصغی إلى صوت الجداول جاريات فی السفوح
واستنشقی الأزهار فی الجنات مادامت تفوح
وتمتعی بالشهب فی الأفلاک مادامت تلوح
السحب تركض فی الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
سلمی ..... بماذا تفكرين
سلمی ..... بماذا تحلمين
إن الجمال يغيب مثل القبح تحت البرقع

(ابو ماضی، ٢٠٠٩: ٥٥٠)

الریبة و الشک و تأثره بزملائه الشعراء

فی قصیدة «الطلاسم» یتأثر الشاعر من أفکار *أبی العلاء* و*أبی العتاهیه* و*الخیام* ویقول وینشد، کأنه جاهلٌ بالأمر، وطریقة إنشاده هو السؤال والشک والریبة فی جوانب شتی وهو متأثر تأثراً حاداً والشاعر یغنی موضوعه بثقافة واسعة مستمدة مِن الفلسفة والدین والتاریخ وعلم النفس والاجتماع؛ ویجعل موضوعه کامل التساؤل حول کل شیء، لأنه سوف یتهیأ فی مجمل شعره الذی قال قبل نظم قصیدة «الطلاسم» ویجعل کلّ معتقداته إلی فردیة وتری فی القصیدة کل مقطوعة تعبر عن فکرة قائمة بذاتها والجدل والنقاش ظاهرة فی طریقة الشاعر. فأما تأثیره *بأبی العلاء* یقول منشداً:

إنّ الألی وطئت نعالُهم السّهی وطئت جباهُهُم نعالَ الماشیة

(ن.م: ۶۰۲)

وقد انشده *أبو العلاء* فی «سقط الزند» قائلاً:

خفّف الوطأ ما أظن أدیم الأ رض إلاّ من هذه الأجساد

(المعری، ۲۰۰۴: ۱۸۷)

وقول *ایلیا* فی بیت آخر متأثراً من فیلسوف المعرة:

عصرٌ لئن جاء البشیر بعوده فلاخلعن علی البشیر شبابیه

(ابوماضی،۲۰۰۹: ۶۰۵)

وهو التباکی علی الشباب وعلی أیام مجد سالفة فی حین أن أبا العلاء یقول منشداً:

وخلعتُ الشباب غضاً فیا لیـ ـتک أبلیته مع الأنـدادِ

(المعری، ۲۰۰۴: ۱۹۷)

وهناک مفردات کثیرة غیرها مستمدة مِن قاموس *أبی العلاء* مثل «البشیر والعلج والأجداد»، فیما یقوله *ابوماضی*:

وا خجلة العربی مِن أجداده صارت عبیدهم الطغام مواليه

(ابوماضی، ۲۰۰۹: ۶۰۵)

واستنتج اللغات من *أبی العلاء* بقوله:

وقبیحُ بنا وإن قدم العهـ ـدُ هوان الآباء والأجدادِ

(المعری، ۲۰۰۴: ۷۹)

التأثر بالإسلام و سور القرآن

قد تأثر *ابو ماضى* بالإسلام وسور القرآن وهو يذكر القبائل التى اندثرت اثر العذاب الإلهى، بذكره فى إحدى قصائده مع أن هذه الأبيات ذكرت مِن قبل *ابى تمام* و*أبى العلاء* و*البحترى*، ويذكر العراق فى عصر *الرشيد* مستمداً مِن الآيات الكريمة والقافية من الكلمات التى تزن على اوزان السجع القرآنى فيما قاله الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمودُ وعادٌ بِالقارِعَة ۝ فأمّا ثَمودُ فأُهْلِكوا بِالطّاغِيَة ۝ وَأمّا عادٌ فأُهْلِكوا بِريحٍ صَرصَرٍ عاتِيَة ۝ سَخّرَها عَلَيهِم سَبعَ لَيالٍ وثَمانِيَةَ أيّامٍ حسوماً فَتَرَى القَومَ فِيها صَرعَى كَأنَّهُم أعجازُ نَخلٍ خاوِيَة ۝ فَهَل تَرَى لَهُم مِن باقِيَة﴾ (الحاقة/٤-٨)

وفى القرآن اوزان أخرى قد استعملها *ابو ماضى* فى قصائده، ومنها ما يندد ببغداد التى كانت فيها قصورٌ عالية ويقول منشداً:

واجتاح مجتاح العروش ملوكها ... فكأنهم أعجاز نخلٍ خاويه
أين القصور الشاهقات وأهلها ... بادَ الجميع فما لهم من باقيه
ملكٌ أدال مِن الجهالةِ علمه ... وأذّل صارمة الملوك العاتيه
مستسلمون إلى القضاء كأنما ... أخذوا ولما يؤخذوا بالغاشيه
صغرت نفوسهم فبات عزيزهم ... يخشى الجبان كما يخاف الطاغيه

(ابو ماضى،٢٠٠٩: ٦٠٤)

وتأثر بأشعار *أبى العتاهية* واستفاد من قوافيه، واسترسل فى اشعاره هكذا كما يقول هذا الشاعر(*ابى العتاهية*) منشداً:

رغيف خبزٍ يابسٍ ... تأكله فى زاويه
معتبراً بمن مضى ... مِن القرون الخاليه
تعقبها عقوبةٌ ... تُصلى بنارٍ حاميه

(ابوالعتاهية، ١٩٩٧: ٤٣٩)

ابو ماضى و الخيام و أدباء الغرب بين التأثير و التقليد

كانت ولادة *عمر بن ابراهيم الخيام* وهو من مشاهير الحكماء والرياضيين الفرس وأحد مفاخر ايران سنة ۴۳۷ هـ وكان وفاته حوالى سنة ۵۱۷ هـ وقد كتب عنه مؤرخون

وکتّاب کبار منهم *ادوارد براون* فی کتابه «تاریخ علوم أدبیة ایران» وکتب حوله بأنه لیس شاعراً قط بل کان منجماً حاذقاً فی زمن السلاجقة وتعلم اللغة العربیة، وأصبح متخصصاً فیها وقد خاطبه الشاعر الایرانی *خاقانی الشروانی* بقوله:

زان عقل بدو گفت که ای عمّر عثمان　　هم عمّر خیامی و هم عمّر خطّاب

(نظامی عروضی، ۱۳۸۸: ۲۹۷)

- إنک عالم فی النجوم وعادلٌ کعمر الخطاب.

وله أشعار عربیة منشداً:

رجیت دهراً طویلاً فی التماس أخٍ　　یرعی ودادی اذا ذو خلة خانا

فکم آلفتُ وکم آخیتُ غیرَ أخٍ　　وکم تبدلتُ بالإخوانِ اخوانا

وقلتُ للنفس لمّا عزّ مطلبها　　باللهِ لا تألفی ما عشتُ انسانا

(م.س: ۲۹۹)

وأما الاشعار التی اشتهر بها *الخیام* هی «الرباعیات» أی «الدوبیت» وهی تفترق کاملاً عما یقال فی الدوبیت الفارسیة. لم یکن *الخیام* عند ما نظم رباعیاته یحلم بما سیکون لها من الشأن وخاصة عند أمم غربیة، ولکن أصبح لها الإقبال والتهافت علی دراستها فی الغرب ونقلوها إلی لغات العالم من قبل الرابطة الأدبیة باسم «عمر خیام کلوب» وتأسست هذه الجمعیة سنة ۱۸۹۳ م أی سنتین بعد ولادة *ایلیا ابوماضی* فی الغرب، وقدّموا مجموعة من الورود إلی مقبرة *فیتز جرالد* الذی اعتنی بترجمة اشعاره، واصبح الکتاب منتشراً بثلاثین لغة عالمیة وبعض الکتب دونت حوالی ۳۰ مرة من قبل المطابع العالمیة، وما نری أن *ابا ماضی* قد هاجر إلی أمریکا سنة ۱۹۱۲م، وقد رأی بعض الترجمات وتأثر بکلامه حینما یعمل مع المهجریین فی الرابطة القلمیة.

وقد طلبت هذه الرابطة الأدبیة من ملک ایران آنذاک، وهو *ناصرالدین شاه* علی أن یهتم ببناء مقبرة *خیام*، فأجاب: «أنا موافق لهذا العمل بشرط ان یدفع ثمن البناء من قبل هذه الجمعیة»(المصدر السابق: ۳۱۷).

وقد قیل حول *خیام* أنه کان من «الفرقة اللا أدریه» کما کان *ابو ماضی* هکذا فی انشودته «الطلاسم»(لست أدری) ولکن *الخیام* کان مسلماً ومفرحاً فی حیاته، لا یقول الکفر ابداً ومحباً للطبیعة الحیة کما هو الحال فی شعر *أبی ماضی* ولکنه کان معترضاً علی

الحياة الروحانية وكان مصلياً والأروبيون يعتقدون أنه كان من الصوفية؛ ولكنه حكيم وتعتبر رباعياته التی من أجمل الرباعيات انشدت من قبل الشعراء، وقد عدّت هذه الأشعار علی أكثر من ١٢٢٤ رباعية ومنها لم تنشر بقوله:

ای ذات منزّه تو از عیب بری　　بیرون ز هزار پرده در پرده دری
در پرده هزار معصیت هست مرا　　ایمن شده‌ام ز فضلت از پرده دری

(ن.م: ٣٤٠)

الترجمة:

الهی وربی الذی نزّهتَ من کل عیب　　وأنت الذی دون سِتار وتکشف سرّ الأریب
وأنا مرتکب العیوب فی الجهر والغیب　　قد أمنتُ فی جنبک واستترتُ من کل ریب

وإن أكثر الكلمات المترددة فی رباعياته هی «الحانة والكوز والعود والنای والخمرة والطبيعة» أو عبارة «العمر سريع الزوال» فيجب أن ننتهز الفرص قبل فواتها، ونحن لا نعلم من اين أتينا وإلی أين نذهب كما هو الحال فی شعر *أبی ماضی*:

جئت لا أعلم من أین ولکنی أتیتُ　　ولقد أبصرتُ قدامی طریقاً فمشیت
وسابقی ماشیاً إن شئت هذا أم أبیت　　کیف جئت؟ کیف أبصرت طریقی؟ لست أدری
أجدیدٌ أم قدیم أنا فی هذا الوجود؟　　هل أنا حرّ طلیقٌ أم أسیر فی القیود؟
هل أنا قائد نفسی أم مقود　　اتمنی اننی أدری ولکن لست أدری

(ابوماضی، ٢٠٠٩: ٨٩)

وقد أنشد *الخيام* مفاهيم هذا السؤال بقوله:

آورد به اضطرابم اول به وجود　　جز حیرتم از جهان چیزی نفزود
رفتیم به اکراه و ندانیم چه بود　　زین آمدن و بودن و رفتن مقصود

الترجمة:

حین اوجَدتُ طربتُ للوجود
والتعجب کان فی فهمی بأنّی لا أزود
والذهاب فی مسیری للحیاة لإکراه القیود
لا أعلم من أین أتیت وإلامَ أنّنی اوجدت فی هذا الوجود

أو:

چون نیست مقام ما در این دیر مقیم　　پس بی می و معشوقه عذابی است الیم
تا کی ز قدیم و محدث امیدم و بیم　　چون من رفتم جهان چه محدث چه قدیم

الترجمة:

إذا لم نکن فی الدهر نبقی فعیشنا　　بدون الحمیا والحبیب الذمیم
إلامَ اهتمامی فی قدیمٍ وحادث　　وسیّان بعدی حادث وقدیم

وکانت مدرسة *الخیام* الأدبیة هی ایضاً مدرسة الریب والشک فی کل شیء، وهزؤه بأهل زمانه وطباع معاصریه وجرأته فی القول، وتعدّی حدود الدین والآداب واستعمال الکنایات المرة فی الطعن والتشنیع علی المرائین من أدعیاء الزهد، وهذا مما أدّی إلی أن ینظروا أهل زمانه إلیه شزراً(خیام، ۱۹۹۱: مقدمة).

ویوضح فی إحدی رباعیاته علی أنّه قد عاش حوالی سبعین عاماً قائلاً:

من دامن زهد و توبه طی خواهم کرد　　با موی سفید قصد می خواهم کرد
پیمانه عمر من به هفتاد رسید　　این دم نکنم نشاط کی خواهم کرد

(الخیام: رباعیات)

الترجمة:

إنّی سأصیر فی طریق التوبة　　والشّعر أبیض والقصد فی مسرح القهوة
کأسی قد امتلأ بسبعین دون ثروة　　إن لم أسع للترح والفرح فمتی أصِلُ إلی الشهوة

ویقول *ابو ماضی* مشابهاً لهذا الکلام:

سلختها سبعین من أجلها　　فی عالم الطرس ودنیا الدواة
الناس من حولک فی قیلهم　　وأنت کالعابد وقت الصلاة

(ابو ماضی، ۲۰۰۹: ۱۲۱)

لقد کان نظر *الخیام* إلی الحادثات نظراً فلسفیاً علمیاً، ینطبق انطباقاً شدیداً علی الفلسفة العلمیة التی تعرف الیوم ب«الموبیلیزم» أو فلسفة الإنقلاب.

ففی نظر *الخیام* کلّ الکائنات سیل یستمر من الأزل إلی الأبد والإنسان کدقاق العیدان یقذفها ویمضی بها، وهو ذلک جاهل لا یدری مِن أین أتی وإلی أین یذهب کما یقول *ابو ماضی* «جئت لا أعلم من أین ولکنی أتیت» ویعتقد *الخیام* أن جمیع العناصر فی ترکیب وانحلال دائم، الأجزاء البسیطة التی تترکب منها مادة الموجودات هی دائماً فی تجمع

وتفرق، فالإنسان الذی یموت تودع جثّته فی بطن الثری وتنحل عناصره وتبعثر وقد یدخل بعض هذه العناصر المتبعثرة فی عفصة سروةٍ أو زهرةٍ خبیزة أو کتلة طین أو عروة ابریق(نفس المصدر: ٢٥).

ففکرة التشاؤم هی من خصائص فلسفة *الخیام* النظریة، أما فلسفته العلمیة فإنها فلسفة سعادة وهناء، وفلسفة شهوات وملذات، فهو بذلک «ابیکوری» النزعة، ویجد السعادة فی مطاوی الملذات والمشتهیات ویقول هکذا منشداً:

می‌خوردن و شادبودن آیین من است　　فارغ بودن ز کفر و دین، دین من است
گفتم به عروس دهر کابین تو چیست　　گفتا دل خرم تو کابین من است

(الخیام: رباعیات)

الترجمة:

إن دینی الهنا ورشف الحمیا　　وابتعاد عن کل دین و کفر
قلتُ ماذا یکون مَهر عروس الدَّ　　هْرِ قالتْ جذلان قلبک مهری

فالشعراء الغربیون یشبهون *الخیام بأبیکور وأبی العلاء وغوته وشوبنهور*(نفس المصدر:٢٧). أما تشاؤم *أبی‌العلاء* لم یکن کتشاؤم *الخیام* بل کان حقیقیاً مظلماً، لأنّ *المعرّی* عاش زاهداً متقشفاً بعیداً عن الملذات والشهوات، وکان ینظر دائماً إلی لذائذ الدنیا نظر ازدراء وأقواله الفلسفیة أخلاقیة، وأما مشابهته ل*شوبنهور* هی من جهة التشاؤم، وأما شباهته ل*غوته* الشاعر الفرنسی هو من جهة عدم المبالاة بالدین وأما *غوته* أعظم شخصیة أدبیة ممتازة فی القرن الثامن عشر نظرته إلی الکائنات *کالخیام* ولکن اعتقاده فی الله یختلف اختلافاً تاماً عنه.

نتیجة البحث

یمکن القول فی نهایه الکلام أنّ الشاعرین المتشائمین اشترکا فی أصولٍ وافترقا فی أصولٍ أخری:

١. کانا کلاهما متشائمین ومتفائلین فمن تشاؤهما أنهما کان یتسائلان دائماً عن الطبیعة والوجود، ولا ینتهیان بالجواب کما قال *ایلیا ابوماضی* فی قصیدة «الطلاسم» وقصائد أخری، وانشد *الخیام* أیضاً فی رباعیات متکررة.

۲. کان *الخیام* من شعراء الطبیعة وله علاقة بالفردوس والورد والجنة والنبات والملذات الدنیویة، *وابوماضی* هکذا کان یعتقد بالطبیعة ویحیی بلبنان وطبیعتها الفذة. ینشد *خیام*:

بنگر ز صبا دامن گل چاک شده است　　بلبل ز جمال گل طربناک شده است
در سایه گل نشین که بسیار این گل　　از خاک برآمده است و در خاک شده است

الترجمة:

أما تری الأزهار فیها عبثت یدُ الصبا　　ومن جمالها غدا البلبل یشدو طربا
فبادر الزهر ودعْ أنت الأسی والکربا　　فهذه الأزهار کم زهتْ وکم عادت هبا

وابو ماضی کان یعتقد بأن الروح سوف تذوب فی وجود الأزهار، وربما تحل روحها فی زهرة أو ابریقٍ أو شیء آخر مع اعتقاده کاملاً بالطبیعة الحرة منشدا:

کن زهرةً أو نغمةً فی زهرةٍ　　فالمجد للأزهارِ والنغماتِ
تمشی الشهور علی الورود ضحوکةً　　وتنام فی الأشواکِ مکتئباتِ
وتموت ذی للعقم قبل مماتها　　وتعیش تلک الدهر فی ساعات

(ابوماضی،۲۰۰۹: ۱۱۵)

۳. إن *الخیام* کان معتقداً بالدین وبالآخرة، وکذلک *ابو ماضی* کان اعتقاده بالدین وبالأمور الإلهیه قویاً ولا یهتم أن یکون مسلماً أو مسیحیاً أو یهودیاً کما یقول منشداً:

بینی وبین العیون سر　　اللهُ فی السّرِ والعیون
إذا عصت فکرتی القوافی　　أوحت لنفسی بها الجنون
ان کان خیرٌ أو شرٌّ　　إنّا إلی اللهِ راجعون

(ن.م:۵۴۷)

ویقول *الخیام* هکذا:

از خالق کردگار وز رب رحیم　　نومید نی‌ام به جرم و عصیان عظیم
گر مست و خراب مرده باشم امروز　　فردا بخشد به استخوان‌های رمیم

(الخیام: رباعیات)

الترجمة:

أنا لست أقنط من خالق　　رحیم لعبء ذنوبی الحسام
إذا الیوم متُّ سریع الطلا　　سیعفو غداً عن رمیم العظام

٤. كان *ابو ماضی* معتقداً أن صنعه من قبل الله من التراب مهما كان الوجـود، واعتقـاد *خیام* كان هكذا وقد اقتبس كلامه من *الخیام* بقوله:

سئمت نفسی الحياة مع النـاسِ ... وملّـت حتـی مِـن الأحبـاب
وتمشـت فيهـا الملالـة حتـی ... ضجرت من طعامهم والشـرابِ
علّمتنی الحياة فـی القفـر أنـی ... أينما كنت ساكن فـی التـراب

(ابوماضی،٢٠٠٩: ٥٧)

ويقول *الخیام*:

يک چند به کودکی به استاد شـديم ... يک چند ز استادی خود شاد شـديم
پايان سخن شنو که ما را چه رسـيد ... از خاک در آمديم و در خاک شـديم

(الخيام: رباعيات)

الترجمة:

كم صرتُ طفلاً لتحصيل العلوم وكـم ... أصـبحت بعـد بتـدريس لهـا طربـا
فاسمع ختام حديثی ما بلغـت سـوی ... إنّـی خُلقـت ترابـا ثـم عـدت هبـا

ويقول فی رباعيةٍ أخری:

تا خـاک مـرا بـه قالـب آميختـه‌انـد ... بس فتنه که از خاک برانگيختـه‌انـد
مـن بهتـر از ايـن نمـی‌تـوانم بـودن ... کز بوته چنين مرا بـرون ريختـه‌انـد

(ن.م)

الترجمة:

كـم فتنـة قـدماً أثـار مـن الثـری ... إذ كـوّن البـاری ترابـی وصـوّرا
أنـا لا اضـيق ترقيـا عمّـا أنـا ... فيـه فطينـا أفرغـوه كمـا تُـری

٥. وكان *ابوماضی* من الذين يعتبرون الخمرة عاملاً لنسيان الهموم واقتبس كلامه مـن *الخیام* قائلاً:

يـا أيهـا السـاقی أدر كأسـاتها ... كمشـاعل الرهبـان فـی الأغـلاسِ
وانـس الهمـوم فلـيس يُسـعدُ ذاكـراً ... واسـقِ النجـوم فإنهـا جلّاسـی
واصـرع بهـا عقـل النـديم ولبّـه ... مـا نغّـص الحاسـی كعقـل الحاسـی

(ابوماضی،٢٠٠٩: ٣١١)

ویقول *الخیام* منشداً:

صبحی خوش و خرم است خیز ای ساقی　　در شیشه کن آن شراب از شب باقی
جامی به من آور و غنیمت می‌دان　　این یک دم نقد را و فردا باقی

وینشد أبو ماضی بنفس هذا المعنی قائلاً:

راق الصباح فقم أرق بزجاجة　　باقی سلافة لیلنا یا ساقی
ثم اسقنی کأساً وبادر لحظةً　　مِن عمرنا ستزول فالغد باقی

وهناک فروق ومشابهات کثیرة لا یقدر المقال أن نبحث أکثر من هذا، وإن کان المجال لنا سیکون البحث فی مقالةٍ آخر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابوالعتاهية. ١٩٩٧م، **الديوان**، شرح مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربی.

ابوماضی، ایلیا. ١٩١١م، **تذكار الماضی**، مقدمة بقلم جبران خلیل جبران، القاهرة: المطبعة المصرية.

ابوماضی، ایلیا. ١٩٢٧م، **ديوان الجداول**، بيروت: دار العلم للملايين.

ابوماضی، ایلیا. ٢٠٠٩م، **الديوان**، شرح صلاح الدين الهواری، بيروت: دار الهلال.

بوشنسكی، أ.م. ١٩٩٢م، **الفلسفة المعاصرة فی اروبا**، ترجمة عزت فرمی، بيروت: دار الكتاب.

حسين، طه. د.ت، **حديث الأربعاء**، مصر: دار المعارف.

خوری، الفرد. ١٩٦٨م. **ايليا ابوماضی؛ شاعر الجمال والتفاؤل والتساؤل**، بيروت: بيت الحكمة.

دی طرازی، فيليب. ١٩١٣م، **تاريخ الصحافة العربية**، بيروت: المطبعة الأدبية.

راسل، برتراند. ١٩٨٣م، **حكمة الغرب**، **الفلسفة الحديثة والمعاصرة**، فؤاد زكريا، كويت: عالم المعرفة.

شرارة، عبداللطيف. ١٩٦٥م، **ايليا ابوماضی**، بيروت: دار صادر.

شيخو، الأب لويس. ١٩٢٤م. **الآداب العربية فی القرن التاسع عشر**، ج١، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

الخيام النيشابوری، عمر. ١٩٩١م. **رباعيات عمر الخيام**، ترجمة أحمد الصافی النجفی، بيروت: البلاغ.

صيدح، جورج. ١٩٦٤م، **أدبنا وأدباؤنا فی المهاجر الأمريكية**، بيروت: دارالعلم للملايين.

فتحی صفوة، نجدة. ١٩٤٥م. **ايليا ابوماضی والحركة الأدبية فی المهجر**، بغداد.

القبانی، عبدالعليم. ١٩٧٧م. **ايليا ابوماضی؛ حياته وشعره فی الإسكندرية**، بيروت: منشورات عويدات.

الكتانی، محمد. ١٩٨٢م، **الصراع بين القديم والجديد فی الأدب العربی الحديث**، المغرب: دار الثقافة.

المعری، ابوالعلاء. ٢٠٠٤م، **ديوان سقط الزند**، شرح و تعليق يحيی شامی، بيروت: دار الفكر العربی.

المعوش، سالم. ١٩٩٧م، **ايليا ابوماضی؛ بين الشرق والغرب**، بيروت: مؤسسة بحسون.

الناعوری، عيسی. ١٩٧٧م. **ايليا ابوماضی؛ رسول الشعر الحديث**، بيروت: منشورات عويدات.

المنابع الفارسية

نظامی سمرقندی عروضی. ١٣٨٨ هـ ش، **چهار مقاله و تعليقات**، تصحيح محمد معين، تهران: صدای معاصر.

خيام نيشابوری، عمر. ١٣٧٣هـ ش، **رباعيات خيام**، مقدمه و شرح محمدعلی فروغی، تهران: انتشارات جاويدان.